# فوزي القاوقجي طرابلس ... ومشهد العنف الاول لبنان ا ديث... يوم القاوقجي طرابلس

طلال منجد- جريدة التمدن الطرابلسية في ٢-٤-٢٠١٠

ملف على( ثلاث حلقات) اعـداد طـلال المنجد



فوزي القاوقجي

في الثامن من آذار ١٩٤٧، شهدت مدينة طرابلس حدثا عنيفاً مروعاً عرف بحادثة فوزي القاوقجي التي اعتبرت اول مشهد عنفي في لبنان الحديث، سقط فيه حوالي ٥٢ قتيلاً وعدد مماثل من الجرحى عندما اطلق رصاص حي على جموع المحتفلين في ساحة المدينة المركزية .

الحادثة بحد ذاتها اتخذت تسميات عدة:

فتنة، مؤامرة، تصفية، اي المرادفات التي ترددت كثيراً فيما بعـد اثنـاء الحـرب اللبنانية .

ولقد جرى تناول هذا الحدث بعد عقـود من الزمن على مستوى اعلامي من خلال مقابلات صحافية مع قبضايات طرابلس الذين اعادوا روايتها جزئياً دافعين بالحديث اليومي الشفهي في طرابلس نحو ذاك الماضي القريب ما يعطي السوانح الملائمة لاعادة تناولها بقراءتها مجدداً واكتناه المركب العنفـي الـذي انفجـر فـي الاربعينات ضمن حالة سياسية حافلة وفي خضم مرحلة انتقالية من النفوذ الاجنبي المباشر الى دولة الاستقلال الاولى التي لم تكن بعيدة عما جرى. وذاك المشهد الدموي الاول والذي كـان فريداً يومها، تكرر في لبنان كثيراً فيما بعد. وبقدر ما نظر الى حادثة القاوقجي بعيون الانذهال في نهاية الاربعينات بقدر ما اصبح اقرب الى الاعتيادية في منتصف السبعينات .

واعادة قراءة حادثة القاوقجي في طرابلس تتطلب تناول السياق الـسياسي والمحلـي الـذي

انفجرت فيه، من هنا، يبدو التفصيل المحلي شديد الاهمية احياناً .

مطلع القرن الماضي، قام كاتبان تركيان متنوران هما رفيق التميمي، مدير المدرسة التجارية ومحمد بهجت مدير المدرسة السلطانية باعداد مسح شامل عن ولاية بيروت التابعة حينذاك للسلطنة العثمانية وذلك بناء لطلب الوالي عزمي بك. ولقد تجول الكاتبان في انحاء الولاية ووضعا في النهاية بحثاً واسعاً نشر عام ١٩١٧ بعنوان «ولاية بيروت .«

افرد الكتاب فصلاً لمدينة طرابلس بدت فيه مدينة هادئة ذات تقاليد محافظة، وفي بند خاص عن حالة الامن فيها، اورد البحث ٥٧ حادثة امنية خلال ٣ سنوات، منها ٤٧ حادثة جرت في ريفها المجاور و١٠ حوادث محسوبة على الخانة الطرابلسية المدينية اي بمعدل ٣,٥ حوادث سنوياً .

وبمنهج المتمكن من علم النفس الاجتماعي، يمضي الكتاب فيصف ما يسميه "بالاحوال الروحية" لأبناء المدينة فهم "أناس فخر ولهو اكثر من كونهم ارباب حرص وطمع او ضلال وفساد فكانت الحالة الروحية تمثل كتاباً ملوناً على غاية من الظرافة وعنوانه الانس والانسانية وتجدون كل من تعاشرونه من الطرابلسيين على اختلاف طبقاتهم انيساً متقرباً، يبتسم بوجه مسرور وتبرق عيناه عن اطمئنان ونشاط". ويمضي البحث الى حد تصنيف أمزجة الناس وطباعهم ثم يصفهم «بالفراشات ترفرف في كل آن وساحة ثم تقف وربما تزج بنفسها وتنساب في ميادين عديدة وراء آفاق الطبيعة المعهودة .«

## زمن سايكس - بيكو

لم يكد كتاب ولاية بيروت يصدر من المطبعة العمومية، حتى وضعت الحرب العالمية الاولى اوزارها، وغادر آخر متصرف تركي وتشكلت حكومة عربية في دمشق ابرقت بتعيين حاكم عربي لبيروت وآخر لبعبدا وثالث لطرابلس وذلك في المرحلة الانتقالية التي سبقت مجيء جيوش الحلفاء. بالنسبة لمدينة طرابلس، قضت البرقية الحكومية بتعيين سعدا المنلا حاكماً للمدينة وهو اداري كبير من خريجي الكلية الملكية، الا ان الوجهاء اهملوا هذه البرقية واختاروا مفتي المدينة عبدالحميد كرامي حاكماً، وكان في التاسعة عشرة من عمره، فرفع العلم العربي على سارية السراي العثمانية ودام ذلك حوالي اسبوع لم يكتمل ففي اليوم السابع منه، استيقظ الناس على جلبة وضوضاء وهرعوا الى ساحة التل فوجدوا ارضها الرملية الفسيحة ملأى بمخيمات الضباط البريطانيين وجنودهم ومعهم مفارز من الجيش الفرنسي دخل قائدها القومندان "دي لاروشن" سراي الحكومة وكان اول اجراء اتخذه انزال العلم العربي ومعه

شعار الطغراء العثمانية ورفع العلم الفرنسي وعلق فوق الباب الخارجي للسراي يافطة مكتوب عليها بالعربية والفرنسية "بلاد العدو المحتلة - الحاكم العـسكري". وتبلـغ حـاكم المدينـة عبدالحميد كرامي من ترجمان القنصلية الفرنسية في طرابلس ما فحواه ان حاكماً فرنسياً هـو الذي اصبح الآن يشغل السراي ويحكم البلاد ومن الافضل عدم مواجهته ريثما يستدعي الحاكم الجديد وجهاء المدينة واعيانها للاجتماع به .

وعلى المرء ان لا يفترض ان صداماً ما قد وقع على الفور بين الجنـود الاجانـب والـسكان المحليين الذين نظروا في البداية بدهشة وفضولية لمنظر العسكر ولسيارات ضـباطهم التـي عبرت ترعة السويس. ولقد جرى تبادل بعض المنتجات بين الفريقين: علب المربيات واللحوم من الجنود مقابل فواكه وخضار طازجة من الاهالي. الا ان المسألة للوجهـاء بـدت مختلفـة ومحيرة. وبعضهم سبق له ان انخرط في اطار الحركات الاصلاحية العربية واطلع على تطـور الامور والوعود وتشمل مدينة طرابلس، وآخرون متعلقون بعاصمة واحدة لا تـسقط رايتهـا الخضراء وهي اسطنبول. وقلة قليلة ادركت زمن سايكس - بيكو وعصره وتجاوبت معه.

وسيتحول هذا الاختلاف فيما بعد الى تيارين رئيسيين :

-تيار التعامل مع الواقع الجديد والتعاطي مع الفرنسيين .

-تيار رافض ارتبط بادىء الامر بالحكومة العربية في دمشق ولما خابت آماله حاول ان يلعب على وتر الخلاف الفرنسي - البريطاني. وهناك من تطلع اثناء الحرب العالمية الثانيـة الـى انتصار الماني على الحلفاء لعل البلاد تنال استقلالها .

وسيقدر لهذين التيارين، رغم الخلافات، ان يرسما خطوط الكف المستقبلية لمدينـة طـرابلس ومصيرها وسيكون من نجوم هذه المرحلة المقبلة: فوزي القـاوقجي، عبدالحميـد كرامـي، عبداللطيف بيسار وراشد المقدم .

## عنف صوتي

عندما حسم الفرنسيون معركة ميسلون، تموز ١٩٢٠، لمصلحتهم، تأججت نار الثـورات فـي بعض مناطق سوريا ولبنان. وحاول اعيان طرابلس الاحتجاج بطريقة ما فاسـتدعاهم اميـرال البحرية الفرنسية المرابطة في الميناء وهددهم وافهمهم ان العقاب سيكون اطلاق المدافع على المدينة من بوارجه التي كانت اطلقت فعلاً عدة قذائف صوتية كانت جديدة على السمع ولكنهـا كافية لاحداث الاثر المطلوب لوقت لن يطول .

لقد انهار مشروع المملكة الفيصلية وكان عبدالحميد كرامي الاكثر حماساً لـه علـى أمـل ان تصبح طرابلس ثغر سوريا الداخلية على البحر. ومن شدة حماسه، اقنع الاهلين ببنـاء قـصر للملك فيصل في طرابلس سمي قصر «الحمراء» تيمناً بعصر العرب الزاهي في الاندلس وهـو القصر الذي سيقطنه عبدالحميد فيما بعد. اما باعة الحلويات الشهيرة فقد ابتكروا صنفاً جديـداً من حلوياتهم اسموه «الفيصلية» كان الاكثر غنى بالمواد الاولية المستعملة في هذه الاصـناف ولا تضاهيه الا «العثملية» نسبة الى العثمانيين .

وثمة من كان يفكر في طرابلس بشكل اكثر قلقاً وعمقاً ومنهم الدكتور عبداللطيف بيسار وهـو طبيب عسكري سابق في الجيش التركي والاكثر تواصلاً بما حققه مصطفى كمال في الاناضول فعمل على تكوين معالم حركة مدينية تدفع بالوضع السياسي في طرابلس من اطار محافظتـه وتقليديته. اما فوزي القاوقجي، ضابط الخيالة السابق في هذا الجيش والذي رفض في البداية مقابلة الملك فيصل لدى مروره بطرابلس معلناً موالاته للاتراك، فقد التحق بالجيش الـسوري بعد ميسلون وقاد حركة عصابات نشيطة ضد الفرنسيين في مدن سوريا الشمالية، امتدت مطلع عام ١٩٢٦ الى ريف طرابلس في الضنية وعكار فجردت السلطات الفرنسية حملـة عـسكرية قوامها متطوعون وجنود محترفون، ولقد وصلت اصداء الاشتباكات الى مدينة طرابلس ذاتهـا وتحرك الشارع فعمد الفرنسيون الى اعتقال كرامي والبيسار ونفيهما الى جزيـرة ارواد فـي خطوة وقائية .

كانت طرابلس حينها قد اصبحت مدينتين او نواتين داخلية وخارجية: الاولـى هـي المدينـة القديمة، المملوكية العثمانية، والتي لم تتجاوب مع الانتداب فانكفأت على نفسها. والنواة الثانية هي ساحة التل التي عسكر فيها الفرنسيون جيشاً وادارة وفيها بنيت المباني الحديثـة والتـي استوعبت رعايا غربيين ومتحدرين من متصرفية جبل لبنان ونخبة محلية الاصـول. والنـواة الجديدة اشتملت على كل ما هو حديث: نظام جديد للمياه والكهرباء وملاه ليلية ودور سـينما ومؤسسات تجارية وادارات رسمية مستحدثة لغتها السائدة الفرنسية واسلوب حياة وفق النمط الغربي .

لكن المشهد غير المألوف والمثير للقلق هو الاطلالـة العـسكرية للانتـداب لحظـة انـدلاع الاشتباكات في الضنية وجرود عكار: التدشيم والمتاريس وناقلات الجنود المدججة بالـسلاح، يضاف الى ذلك حملة التطويع التي شملت الوافدين في حين عومل السكان المحليون بحمـلات «التجريدة» اي ان تقوم كل محلة في طرابلس الداخلية بتـسليم كميـة معينـة مـن البنـادق والمسدسات وفقاً لعدد السكان فيها .

بعد عام، أفرج عن المنفيين، عبدالحميد كرامي وعبداللطيف بيسار، اللذين استقبلا شعبياً بشكل له مغزى كبير: لقد تم تكريسهما زعيمين سياسيين حيث عرفت طـرابلس لأول مـرة مفهـوم الزعامة السياسية كبديل عن نظام الاعيان الذي اندرجت نخبة منه في اطار المشروع السياسي للانتداب والمعبر عنه بالمجالس التمثيلية الاولى .

## سُئل تشرشل عن مصير القاوقجي فأجاب: «الاعدام »

لقد حظي البيسار وكرامي بتعاطف تضافر مع نضوج وعي سياسي لدى الفئات المدنية الواسعة التي ادركت انها "الشعب". واستجاب كل من الزعيمين بطريقته مع هذا التعاطف ومع "العامة " التي استحالت شعباً: كرامي تجاوز "افنديته" بما تعنيه من استعلاء فتحول يسأل ويؤاكل ويزور ويزار ويبلور "جاذبية شعبية". والبيسار الذي سبق له ان تعرف وانتمى الى الاندية والجمعيات السياسية في اسطنبول مطلع القرن، حاول ان يشكل مثيلاً مؤلفـاً مـن الطـلاب والمدرسـين واصحاب المهن الحرة ضمن اتجاه عروبي استقلالي. ولأنه الجراح الوحيد في طرابلس حينها، اضفى صفة المأثرة على مهنته اذ طبب وعالج دون مقابل، عدا عن تبرع سـخي للمـشاريع العامة .

## واقعية وعداء

مطلع الثلاثينات، افترق الرجلان بهدوء. واذ انقطع كرامي عن تواصله الخارجي مـع رجـال المشروع الفيصلي، فإنه اعتمد على عفوية الشارع في عدائه للانتـداب دون ان يحـدد افقـاً سياسياً فلقد تشبث بمطلب "التحاق طرابلس بسوريا" في حين كان هم الحركة الوطنية السورية انتخابات ديمقراطية هناك ينتج عنها حكومة وطنية تفاوض على الاستقلال، ناصـحة بتجـاوز المطلب الطرابلسي .

في هذه الاونة فشل مشروع الشيخ محمد الجسر في الوصول الى رئاسة الجمهورية وكان من أبرز النخب التي تعاونت بواقعية مع الانتداب فاعتزل العمل السياسي وتوفي عام ١٩٣٤، تاركاً مدينة طرابلس في قطيعة شبه تامة مع اجهزة الدولة اللبنانية التي كان قد نمي عودهـا. ولأن السياسة بطبيعتها لا تحتمل الفراغ، برز اتجاه يطالب بالتقدم للانتخابات النيابية ويرشح لهـذا المنصب أمين المقدم وهو ايضاً من ضباط الجيش التركي سابقاً، وهنا بدت الحركة الـسياسية في طرابلس على مفترق بين عبدالحميد كرامي المطالب المقاطعة وبين التيار الـواقعي وبـدا الافتراق وكأنه خصومة محلية بين عائلتي كرامي والمقدم التي كان يقودها عملياً راشد المقدم.

وهذه العائلة تنتمي الى نفس الاصول: جهاز العلماء ورجال الدين وسبق ان تقلد علماء من آل المقدم منصب الافتاء في القرن التاسع عشر. لكن تحولاً اساسياً طرأ علـى وضـعية العائلـة ابتداء من مطلع القرن العشرين فلقد نما عدد افرادها الذين نشطوا في اطـار مـديني وعمـل بعض افرادها فيما يسمى اليوم "الاقتصاد الموازي" المقتصر في العهد العثماني علـى تهريـب المهاجرين من جبل لبنان

بحراً وعلى الامدادات الغذائية زمن الحرب .

لقد تأسس نظام القبضايات في طرابلس مطلع القرن وتمركز عند بوابات المدينة حيـث يلتـزم القبضاي رسم "الدخولية" من البادية ويعمل على التهريب في آن، وكـان بعـض آل المقـدم يلتزمون دخولية باب التبانة، احدى اكثر البوابات حيوية فهذه المحلـة هـي مخـزن الغـلال والدواب.. الى ذلك عمل راشد المقدم على استيراد الاغنام مع ما يتطلب ذلك من رجال واتباع لحمايتها وتأمين ذبحها وتوزيعها، اضافة الى ملكية بساتين شاسعة من الليمون والحمـضيات اندرج نواطيرها في هذه الشبكة. وكان راشد المقدم يغرف من صوفية شعبية بقيمها الموروثة: اغاثة الملهوف وحماية الضعفاء وهذا ما قرب الناس اليه فهو مرجعيتهم عند اجهزة الدولـة. وبالخدمات التي كان يؤمنها، كان يدفع بزعامته نحو النيابة، عدا عـن كـرم "حـاتمي" لمـن يقصده، وكان وعاؤه يفيض كل اسبوع" بالسبتية" فيتوزع الفائض على ثلاثمائة عائلـة. كـل ذلك جعل الزعامتين كرامي والمقدم، متمايزتين: الاولى تأسـست علـى المواقـف الـسياسية والثانية على اعمال الخدمات .

عام1937، ارتأى المفوض السامي "دي جوفنيل" تشكيل لوائح انتخابية ائتلافية بـين انـصار الكتلة الوطنية برئاسة اميل اده وانصار الكتلة الدستورية برئاسة الشيخ بشارة الخوري. ونتج عن هذا سوء تفاهم كبير في طرابلس، فما كان ينسحب على جبل لبنان لا ينسحب بالـضرورة على طرابلس. ولأنها مخصصة بمقعدين، جرى اتفاق بين العائلتين على ان تتمثل عائلة المقدم بعميدها راشد وعائلة كرامي بشفيق كرامي مما ترك انطباعاً بأن هذا النائب يـوالي اميـل اده وذاك يوالي بشارة الخوري واستطراداً مع او ضد الانتداب .

وسيستعمل ذلك كاتهام له تبعاته في طرابلس فيما بعد وستكون المضاعفات المحليـة شـديدة الوطأة لأنها ستكتسب بعداً سياسياً. وهذا ما ظهر عندما عاود عبدالحميـد كرامـي سياسـته المناوئة للانتداب فانقسم الوسط المحلي سياسياً وشعبياً وبدا الشرخ عميقاً: انها حالة انقـسام في الشارع وليس في مجاس الاعيان. ومن المفارقات ان «الائتلاف الانتخابي» سيكون سـبباً في الانقسام وليس العكس فكأنه فكرة مخادعة ترمي لايجاد خصمين، غير معنيـين، متوسـلة

التوفيق بينهما .

## مغامرة القاوقجي

منتصف الثلاثينات، انتقل فوزي القاوقجي الى فلسطين الواقعة تحت الانتداب البريطاني واشترك بفاعلية في حرب عصابات ميدانية مع المستوطنين ومع السلطات البريطانية في ظل صدور حكم قضائي غيابي باعدامه مما زاده هالة .

وخيط اتصال القاوقجي مع مدينته طرابلس وزعمائها ورجالها لم ينقطع وبالذات مع شبكة راشد المقدم التي تولت تأمين السلاح والامدادات له والتي رعاها راشد شخصياً مع نجليه نافذ ومايز، عدا عن تبرعات سخية للقاوقجي من مواطنه عبداللطيف بيسار ومن المقدم ايضاً. عام ١٩٣٨ سيشهد تطوراً ملفتاً اذ التجأ مفتي فلسطين الشيخ أمين الحسيني الى بيروت وأقام اتصالات مع الزعماء السياسيين ومنها الى طرابلس حيث التقى أهم زعمائها: عبدالحميد كرامي وعبداللطيف بيسار وراشد المقدم في دار الاخير في علما. ويبدو ان اشياء ما قد ربطت عبداللطيف بيسار والذي اصبح وثيق الصلة بالمانيا الصاعدة بقوة اوروبياً وبين المفتي الحسيني وابعاد هذا اللقاء لن تتضح الا فيما بعد، عندما التجأ الحسيني الى المانيا .

ادى نشوب الحرب العالمية الثانية وسقوط باريس سريعاً وتشكيل حكومة فيشي، تولى الجنرال «دانتز» مقاليد الامور في لبنان وسوريا، معلناً موالاته لحكومة فيشي التي ارتبطت بدول المحور. وستنقلب بعض الامور رأساً على عقب وسيكون لها تأثيرها حتى في مدينة طرابلس وستظهر مغامرة القاوقجي السياسية الذي استشعر حينها ملامح انهيار الامبراطورية البريطانية وحاول ان يلعب لعبته السياسية الكبرى في الشرق على ضوء انفجار الصراع في اوروبا .

انتقل القاوقجي من فلسطين الى الاردن ومنها الى العراق حيث عمل مدرساً في الكلية العسكرية واصبح وثيق الصلة برشيد عالي الكيلاني الذي ترأس الحكومة العراقية لفترة ودفع الامور الى حد المواجهة العسكرية مع القوات البريطانية في العراق. واذ خسر الكيلاني الجولة فإنه التجأ الى ايران في حين استمر القاوقجي يخوض معارك ميدانية متفرقة مع القوات البريطانية. واستقطب صموده انظار الشرق برمته ونظر اليه في بريطانيا على انه عدوها رقم (١) في الشرق الاوسط لا سيما وان العمليات العسكرية عادت الى البروز في فلسطين. وسئل تشرشل حينها في مجلس العموم البريطاني عن مصير القاوقجي اذا وقع في الاسر فأجاب: الاعدام، فتطلعت أعين الغرب الى هذا «المغامر العسكري السياسي .«

ولقد اجتمع القاوقجي بالجنرال دانتز وطلب اليه اعلان استقلال لبنان وسوريا مما دفع الجنرال كاترو، ممثل حكومة فرنسا الحرة التي اتخذت الجزائر مقراً لها، الى التوجه للقاهرة واعطاء الوعد الشهير بالاستقلال في خطوة التفافية .

في طرابلس، تصرف بعض الزعماء الوطنيين وكأن الاستقلال أعلن فعلاً وسادت حملة من التعبئة لمساندة القاوقجي قوامها متطوعون وعلى رأسهم الطبيب عبدا  بيسار، ابن شقيق عبداللطيف، وكان قد تخرج حديثاً من المانيا وقد وصل الى العراق فعلاً مع بعض المتطوعين.

وبدت المسألة وكأنها في سباق مع الزمن، وتحرك جيش بريطاني من فلسطين نحو سوريا ولبنان واشتبك مع قوات حكومة فيشي وحسم الامور لصالحه. وكان الجيش البريطاني بقيادة جون افنتس المعروف بـ «جاك المجنون» الذي لم يغفر لأحد وانصب جام غضبه على مدينة طرابلس حيث ارتفعت فيها شعارات تقول: «هايل هتلر هايل هتلر بلا مسيو بلا مستر» وقبض على اربعة اشخاص لهم اتصالات بالقاوقجي واعدم ثلاثة منهم وأعلن انتحار الرابع .

)في العدد المقبل :الحلقة الثانية(

## "يوم القاوقجي": مشهد العنف الاول    لبنان ا  ديث (٢)




نافذ المقدم ومظهر العمري

تتابع الحلقة الثانية التقاط خيوط دولية وعربية ولبنانية ومحلية ادت الى اول مشهد عنفي مروع في لبنان الحديث والمعروف باسم "حادثة القاوقجي ." وقد انتهت الحلقة الاولى الى دخول البريطانيين لبنان وسوريا في خضم الحرب العالمية الثانية وانهاء الحكم الفرنسي الموالي لحكومة فيشي ودول المحور واستتبع ذلك بطشاً بريطانياً بتيار وطني ملتف حول فوزي القاوقجي الذي كان يخوض في العراق غمار معارك ميدانية ضد الوجود البريطاني هناك في شهر ايار ١٩٤١ .

في طرابلس ساد شرخ عميق في المجتمع المحلي وليس ادل على ذلك شعارات تلك المرحلة ومنها" هايل هتار هايل هتار بلا مسيو بلا مستر". ولحظة دخول الجيش البريطاني سادت الردية الانتخابية المعروفة حتى اليوم "والهي هي ساور، بروك جرمان" والمستمدة من الهتاف اليومي للجيش البريطاني وسيفه "الذي سيكسر الالمان .."

واعتقل البريطانيون الدكتور عبداللطيف بيسار واحتجزوه لمدة اشهر في بلدة "المية ومية" في الجنوب ثم اطلقوا سراحه لكنه توفي فجأة عقب ذلك وراجت شائعة انه قضى مسموماً. لكن ردة فعل الناس جاءت على مستوى الحدث فخرجت مدينة طرابلس لتشييعه كزعيم وطني شهيد فقد كان الجو العام في طرابلس أثناء الحرب العالمية الثانية شبيهاً بالاجواء التي سادت في مصر مع اقتراب حملة رومل والتي صورها ببراعة المخرج السينمائي الراحل يوسف شاهين في" اسكندرية ليه": لقد جرى التطلع نحو انتصار دول المحور كإمكانية متاحة للخلاص من الانتدابين الفرنسي والبريطاني .

بعد غياب البيسار اتجهت الانظار نحو راشد المقدم وماذا سيفعل البريطانيون به. ولأنه نائب في مجلس نيابي جرى حله بسبب ظروف الحرب، اكتفى الانكليز بنفيه مع نجليه نافذ ومايز الى قبرص ومنها الى محمية عدن، وتحولت طرابلس بعدائها من الفرنسيين الى الانكليز لا سيما بعد ان عاد راشد المقدم لوحده بعد عامين عودة دراماتيكية من منفاه اذ حطت به طائرة عام ١٩٤٤ في مطار بيروت ومنها الى مسقط رأسه طرابلس فالى احدى المستشفيات حيث

تدهورت صحته فجأة وتوفي فيما راجت نفس الشائعات، انه قـضى اغتيـالاً. ورأت المدينـة نفسها من جديد في نفس الانقسام» :مع او ضد الانكليز .«

واذ كان القاوقجي في العراق فانه اصيب بجراح خطرة جرى نقله الى المانيا حيث عولج واقام هناك وشهد نهاية الرايخ الثالث وسقوط برلين بيد الجيش الروسي الذي اكتفى بوضـعه قيـد الاقامة الجبرية .

اما في لبنان، فقد جرت الانتخابات لمجلس ١٩٤٣ الذي مهد للاستقلال وترشح عن طـرابلس عبدالحميد كرامي لأول مرة في تاريخ حياته السياسية ونافسه في ذلك الدكتور عمـر المقـدم وفاز كرامي بفارق الف صوت بعد منافسة حادة عمقت الشرخ دون ان تبرز هذه المرة فكـرة الائتلاف بمعناه الفعلي رغم ان الحاجة كانت تدعو اليه .

ولقد خيضت الانتخابات النيابية في طرابلس بكيفيتين قاتلتين: مع او ضد الانتـداب الفرنـسي ويقابلها مع او ضد بريطانيا .

مطلع عام ١٩٤٦، عاد الشقيقان نافذ ومايز المقدم من المنفى ليجدا تعاطفاً قوياً معهما بعـدما كانت الامور في طرابلس تغيرت الى حد كبير .

أضواء المدينة والسياسة

كانت طرابلس ابتداء من منتصف الثلاثينات تشهد نمو المنظمات الشبابية اقتداء بما يجري في اوروبا وبعض الدول العربية وخاصة مصر. وسواء كانت المنظمة كشفية ام ذات شكل حربـي فإن عدة الشغل والرموز متشابهة: القمصان الحديدية والبيارق والاعلام والخطوات العـسكرية والاناشيد وكلمة السر والعدو الموهم به والرسالة المثالية .

واذا كان الشارع ميدان هذه الاستعراضات الجديدة فإنها لم تتوجه كلياً ضد عدو واحد مشترك وانما احياناً كثيرة ضد بعضها البعض .

اما القبضاي فتنوعت لائحة اهتماماته وانغمس في عالم المدينة المستحدثة وسـحر اضـوائها وجدة عواملها من ملاه ليلية والبارميد والعاب القمار او قعر المدينة وعالمها السفلي. ورسب كل ذلك في ساحة التل، خلع القبضاي ثوبه التقليدي، الطربوش والقمباز الحريري والخيزرانة وارتدى بدلة معاصرة، الحذاء الابيض اللماع وقبعة "الستاتسون" شبه المقعرة محاكياً ما كانت دور السينما تعرضه في العصر الذهبي للفيلم الاسود: آل كابوني، ولقد حقق فيلم "سكارفيس "

او الوجه المشطوب ايرادات خيالية في التل واصبح عنوانه موضة الموسم.. وعندما تأسـس ميدان سباق الخيل في بيروت، نشأ معه الرهان السري او لعبة "البارولي" التي دخلت هي ايضاً لائحة الممنوعات، وبدلاً من ان يصبح للقبضاي مرجعية واحدة هي زعيمه الذي يمنحه الحماية مقابل الخدمات فإن القبضاي اكتشف مرجعية لا تقل نفوذاً وهي الاجهـزة لأن بيـدها مـذكرة التوقيف وحملات المداهمة .

وبدأ القبضاي يؤجر خدماته لمن يحمي مصالحه اكثر. ولم يعد القبضاي من اصول محلية بحتة فقد استوعبت ساحة التل قبضايات من اصول مختلفة المناطق والطوائف وسـيبدل القبـضاي كثيراً من زعمائه وسيمتد خارج حدود المدينة مثلما ستتلقى طرابلس وافدين من امثاله، انهـم في الواقع فرسان الليل والتل ولم يعودوا فرسان السيف والترس والحارة والبوابة والدخولية.

وسيشتهر القبضاي" بمراجله" على الضعفاء وسينظر بعين الاحتقار للطلاب، القوة الـصاعدة، وسيمارس" الخوة" وسينظم شبكات للبغاء والقمار وسنشهد صراعاً فيما بين شبكاته وستدخل علاقة الاجهزة به في ازدواجية ملفتة .

وفي مواجهة قبضاي الخارج، حافظت المدينة الداخلية على رجالها حيث التبـست التـسميات وتعددت ما بين شيخ الشباب والقبضاي والفتوة والمختار والمفتاح الانتخابي، لكـنهم جميعـاً سيتمايزون عن قبضاي الخارج في جذورهم ومفاهيمهم الصوفية وسينقسم كل هؤلاء معاً عند الزعيم والدولة في نظام ثنائي مزدوج .

بعد الاستقلال وانجاز الحلم، خفت تأثير الوجه السياسي العام للامور في حين تصاعد تنـاقض محلي مثقل بالرواسب والضغائن والاتهامات، وأضحت ساحة التل مرآة عاكسة لها: اصطدامات فيما بين الاحزاب واصطدامات فيما بين هؤلاء واولئك. في احصاء أمني جرى عـام ١٩٤٦، جرى تسجيل ٩٥ حادثة أمنية تراوحت ما بين القتل والاعتداء والطعن والقاء القنابل واطـلاق الرصاص على مقاه ومراكز حزبية ونسبة كبيرة من هذه الحوادث سياسية الطـابع مـا بـين انصار عبدالحميد كرامي وخصومهم وابدت الاجهزة الامنية لا مبـالاة واستـشرى الانفـلات وانعدمت الضوابط .

لقد انخرط عبدالحميد كرامي في عالم السياسة اللبنانية في العاصمة بيروت وشـكل حكومـة اضطرته الى اغفال ما يجري في مدينته واعطى جل اهتمامه الـى تـدبير شـؤون حكومتـه القصيرة العمر (كانون الثاني - آب ١٩٤٥ (والحافلة بالمعارضة الحادة وتناقض أهل الحكـم فيما بينهم. وسط هذا الجو المشحون، عاد الشقيقان نافذ ومايز المقـدم مـن المنفـى ليجـدا

امامهما الساحة الطرابلسية الغارقة في حروبها الصغيرة، واستطاع نافذ تشكيل جبهة سياسية محلية ارتبطت سياسياً بآل الصلح في بيروت وضمت معظم المنظمات الحزبية والشبابية والزعماء المحليين المستائين مما اعتبروه نزعة الاستئثار التي ابداها كرامي. كما اعاد المقدم تجميع انصاره المصدومين طيلة السنوات الماضية فبدا الند الاقوى لزعامة عبدالحميد.

القاوقجي العائد

عندما سقطت برلين بيد الحلفاء والاتحاد السوفياتي في ايار ١٩٤٥، كان فوزي القاوقجي مقيماً في القطاع الروسي منها، فوضع في الاقامة الجبرية ومنع حق السفر، وخلال عام، لم تنقطع الاتصالات بعضها محلي وآخر دولي. محلياً جرت مراسلات عدة بينه وبين اصدقائه الطرابلسيين.

عربياً، بدا ان المشكلة الفلسطينية اعادت تجميع الاهتمام بها من خلال قيام الجامعة العربية التي هيأت لاجتماع خاص بفلسطين تقرر ان يعقد في بلودان (دمشق) اذار ١٩٤٧. ريثما تقرر الجيوش الرسمية النظامية دخول فلسطين ام لا. وباتت النية متجهة لتشكيل جيش من المتطوعين العرب وتطلعت الانظار من جديد نحو فوزي القاوقجي المقيم في برلين.

المقدم — العمري

صعد نجم مظهر العمري، كشخصية محلية، انطلاقاً من صفته المزدوجة: حفيد الشيخ علي العمري الشهير بكراماته وصهر راشد المقدم في آن واحد. وبعد نفي آل المقدم، تولى مظهر العمري تدبير شؤون العائلة وقضاء حاجات الناس ثم انقلب نحو السياسة فارتبط بحلف محلي مع منافس العائلة عبدالحميد كرامي ثم مع هنري فرعون، السياسي الصاعد والمرتبط بالسياسة البريطانية التي نجحت في اقصاء النفوذ الفرنسي.

وبعودة نافذ راشد المقدم من المنفى عام ١٩٤٦، تأسس تناقض جديد داخل المحور العائلي المقدم - العمري الذي ارتبط بوشائج النسب العائلي ونهل من منهل التصوف وافام لجهة السكن والعمل في محلة التبانة التي لم تعد مجرد محلة طرفية بل شكلت نواة مدينية كثيفة ابتداء من عام1840 ، حيث انكفأت حملة ابراهيم باشا المصرية وعادت مدينة طرابلس بذلك الى كنف السلطنة العثمانية.

وشهدت التبانة تحولات ديموغرافية لافتة فقد اتسعت وامتدت عامودياً وافقياً بوصفها سوق تبادل الغلال والسلع ذات المصدر الريفي، وفي نفس الوقت وحول جامع محمود السنجق

وصعوداً نحو محلة القبة الناشئة حديثاً عبر «الطلعات والعقبات»، نشأ تجمع مديني حديث كان محوره يتضمن قيمة دينية رمزية ذات منابت صوفية .

و«قضاء» باب التبانة هذا كان يتولى تجهيز قافلة الحج التي تولت مدينـة طـرابلس قيادتهـا لبرهة بدلاً من قيادة والي دمشق عادة لها وهذا يدل على أهمية مدينة طرابلس بعـد عودتهـا الى السيادة العثمانية .

وابتداء من عام ١٨٨٢واثر تخلي السلطان العثماني عبدالحميد الثاني عن المشروع الدستوري (مدحت باشا) لمواجهة تحديث الغرب او التكيف معه، تجددت الدينامية الصوفية بهمة المرشد الروحي للسلطان عبدالحميد وهو لشيخ يوسف النبهاني الذي رعى شبكة من الفرق الـصوفية انتشرت خصوصاً في مدن بلاد الشام .

ولعب التصوف دوراً مركزياً في محلة التبانة سواء عبر ترسيخ كرامات الشيخ لـي العمـري كأسطورة جامعة وتأسيس العمري لعائلة ممتدة او عبر التـصاهر بـين العـائلتين المقـدم - العمري .

لبنانياً، تقرر ان تجري الانتخابات النيابية في ايار ١٩٤٧.بالنـسبة لمدينـة طـرابلس، كـان المشكوك فيه ان يحافظ عبدالحميد كرامي على تألقه السياسي الذي شهده قبل سنوات .

في برلين، جرى الافراج عن القاوقجي وزوجته وزودا بجوازات سفر تم تأمينهـا مـن قبـل مواطن طرابلسي هو ابراهيم المسقاوي والمقيم في باريس. واتجه القاوقجي في البداية نحـو باريس حيث كان مراسلو وكالات الانباء والصحف بانتظاره لترقب خطوته التالية وكانت احكام الاعدام الصادرة بحقه من الفرنسيين والبريطانيين قد سقطت مع اعلان نهاية الحرب .

صباح ٢٢ شباط ١٩٤٧، غادر القاوقجي على متن طائرة في رحلة جوية مـن بـاريس الـى القاهرة، تخللها حادث مثير اذ تحول مسار الطائرة الى مطار اللد في فلسطين وصـعد ضـباط بريطانيون واستجوبوا القاوقجي لكنهم سمحوا له بالسفر من جديد .

في القاهرة، قام السفير اللبناني حليم ابو عزالدين باستقبال القاوقجي وتدخل لالغاء قرار سابق يقضي بمنعه من الدخول الى القاهرة. وفي هذه العاصمة، اجرى القاوقجي اتصالات مع اركان الجامعة العربية. وبعد بضعة ايام، قرر التوجه الى بيروت ليزور مدينته طرابلس ومسقط رأسه بعد غياب استمر اكثر من ربع قرن عنها اي منذ عام ١٩٢٠ .

في بيروت، تلقى وزير الخارجية اللبنانية هنري فرعون برقية بتوجه القاوقجي الى العاصمة اللبنانية فأخبر عبدالحميد كرامي، رئيس الحكومة السابق الذي توجه لاستقباله في المطار، ومن هناك توجها سوية الى القصر الجمهوري في القنطاري واستقبلهما رئيس الجمهورية بشارة الخوري الذي افرد فصلاً خاصاً في مذكراته "حقائق لبنانية" باسم "حوادث طرابلس الاليمة ". ولقد سبقت عودة القاوقجي خطوة لافتة قبل أيام عندما نجح هنري فرعون بمصالحة عبدالحميد كرامي وشخصية محلية في طرابلس هو مظهر العمري المعروف بصلته الوثيقة بفرعون. وكان من غير المألوف ان يبدي رئيس الديبلوماسية اللبنانية اهتماماً برجال طرابلس وبحروبهم الصغيرة التي تدخل في اختصاص وزارة الداخلية واجهزتها عادة. لقد برز اسم هنري فرعون عندما شكل كرامي حكومته يوم ٩ كانون الثاني ١٩٤٥ عاهداً بوزارة الخارجية الى سليم تقلا الذي كان يشكو وضعاً صحياً متدهوراً. يومان اثر ذلك، توفي تقلا فعين فرعون خلفاً له ونظر اليه كمهندس لعلاقات لبنان الخارجية وبالذات مع بريطانيا محتفظاً بعلاقة وثيقة مع كرامي. واعتبرت مصالحة كرامي والعمري برعاية فرعون علامة استفهام كبرى نظراً للتطورات التي حصلت تالياً .

تعين يوم ٤ اذار ١٩٤٧، موعداً لعودة القاوقجي وتشكلت لجنة محلية لاستقباله انبثقت في واقع الحال من الجبهة السياسية التي يترأسها نافذ المقدم، اتصلت بالقاوقجي برقياً عندما كان في القاهرة وبه شخصياً بعد وصوله الى بيروت. لقد اقلق وصول القاوقجي بعض رجال السياسة والقرار في لبنان ونظروا بعين الريبة الى اقامته في طرابلس لا سيما في مرحلة عصيبة اخذ فيها المرجل الفلسطيني يغلي الى حد الانفجار وكان هذا قبل اعلان قرار التقسيم ببضعة اشهر، وثمة جو شعبي، لبناني وعربي، مشحون ومستفز الى اقصى الحدود ومستعد للسير خلف القاوقجي الذي كان يفتش عن نقطة ارتكاز تتيح له التحرك بفاعلية وحرية لم يجدها الا في طرابلس، مدينته وحيث نافذ المقدم الذي فتح له الذراعين وايضاً عبدالحميد كرامي، صاحب نفس الخط والنهج رغم كونه اصبح من رجال السياسة في بيروت والدولة .

وكانت عودة القاوقجي قد احدثت دوياً مماثلاً في المدن السورية حيث تشكل وفد كبير ضم حوالي الف شخص من" مجاهدي" الثورة السورية الذين قصدوا طرابلس واجتازوا الحدود بأسلحتهم القديمة ونصبوا فيها شوادر عسكرية هي نفسها المخيمات التي كانوا يقيمونها قبل ربع قرن ومعهم عشرات رؤوس الاغنام التي نووا التضحية بها كتعبير عن ابتهاجهم وعسكروا في طرابلس في مدخلها الجنوبي لجهة بيروت في محلة البحصاص .

والايام الثلاثة التي سبقت عودة القاوقجي الى المدينة تشبه الى حد كبير «وقفة» عيد

الاضحى، الاستعداد والتهيؤ والتزيين ومواكب التكبير والكلام المتداول ناهيك عن الخراف .

كانت طرابلس تتصل وثيقاً بالمدن السورية الشمالية واعتادت على مدى اعوام ماضية، ما قبل الاستقلال، على زيارات لمواكب حافلة لهم وبالذات في اعياد المولد النبوي. واشـتهرت هـذه المواكب بأعمدة يعتليها «الهتيفة» وهم يطلقون الاناشيد والاهـازيج. وتـستقبلهم طـرابلس بحشود مماثلة ويكبر الجمع ويتحول لظاهرة تطوف الشوارع ولا تنزع الى العدائية الا بقدر ما تتصدى لها السلطات وغالباً ما تنكفىء هذه فتمضي الامور بسلام. وبعد الاسـتقلال، حاولـت الدولة ان تحد من هذه الظاهرة وان تضعها في اطار قانوني لتنظيم حركة سفر الافـراد بـين لبنان وسوريا .

ساحة العيد

يوم القاوقجي كان يوماً احتفالياً يجمع كل مظاهر الاحتفالات الدينية والوطنية ويشبهها ويضيف اليها استثنائيته وفرادته، كان يوم جمع وجموع وجماعات بحق. لطـرابلس، طريـق واحـدة رئيسية تؤدي الى بيروت وتتصل بها عند البحصاص وتمر بمنطقـة الحـدادين ذات الكثافـة الشعبية ولكنها تنطلق من ساحة التل، الساحة المركزية للمدينة. كان هـذا فـضاء الاحتفـال: طلاب المدارس الرسمية والمدارس ذات الطابع الاسلامي لبـسوا ثيـابهم الجديـدة التـي لا يلبسونها الا في العيدين عادة (عيد الفطر وعيد الاضحى) واصطفوا على جانبي الطريق كأنهم يستقبلون مسؤولاً رفيع المستوى، وانتظمت فرق الكشافة ومعها فـرق المنظمـات الـشبابية واحتلت عرض الطريق بصفوف نظامية وخطوات شبه عسكرية ومنسجمة مع عزف المارشات ذات النوتة الفرنسية. كان ما يفرق هذه الجماعـات لباسـها واعلامهـا وبيارقهـا وتتـشابه اسماؤها :القحطانية، العدنانية، الفيصلية، حطين، ميسلون، الكشاف المسلم، النجادة وغيرها .

شكلت الفرق الصوفية المشاركة نظاماً مغايراً فلها اعلامها الشاهقة فكل بيرق يحتاج لأربعـة ينشرونه بحبال متدلية كشراع سفينة او طائرة هوائية ويحافظون علـى توازنـه خوفـاً مـن الوقوع (وهذه علامة شؤم عادة) وخلف الاعلام فتوة يحملون الآلات الموسيقية المؤلفة مـن نوعين ايقاعيين: الطبول والدفوف من ناحية والصنوج النحاسية من ناحية ثانيـة. والايقـاع البسيط المتمازج كان اكثر الفة مع الاذن المحلية من موسيقى الكشاف. ولكل فرقـة صـوفية شيخها الكبير ومريدوها ولقد خرجوا وكأن المناسبة دينية لا سيما وان فوزي القاوقجي سليل عائلة طرابلسية اشتهرت بعلمها وتقواها وصوفيتها، عائلة ابي المحاسـن القـاوقجي الـذي اشتهر قبل قرن وله مائة كتاب وتخرج من الازهر وتوفي حاجاً في مكة .

على مدى ٢ كلم الواصلة بين البحصاص وساحة التل، شهدت البيوت المطلة على الشارع زيارات مألوفة للاقارب والجيران الذين يبغون الفرجة والتفرج من شرفات المنازل والاجتماع في سيران منزلي ايضاً، من اية شرفة كان يمكن مشاهدة الرجال من كل الاعمار. والذين هم فوق الخمسين يرتدون الطربوش الاحمر القاني من نسيج نمساوي وبعضهم كان لتوه قد استبدل طربوشه بقبعة اتاتورك او القبعة الغربية او فضل ان يبقى حاسر الرأس. وكان اغلب المسنين من الرجال يحملون «الباستون» او عصا الكهولة المعقوفة والتي تدل على التقدم في العمر وتعين على المشي .

من الريف المجاور، ريف عكار والضنية حيث جاهد الفاوقجي سابقاً، وفود كثيفة بألبستها التقليدية: العقال والشروال الاسود .

من طرابلس خرج جميع الرجال كالفراشات الهائمة في الطبيعة وبألوان الطبيعة تسعى وراء الطبيعة وغرائبها في آن، ومن طبع الفراشات، الطيران فرادى وجماعات ولكنها من الكائنات القليلة النادرة التي تجهل غرائزها العنف سواء لجماعتها او لغيرها .

في المدينة يزهر الليمون باكراً فتعبق المدينة بأسرها بالرائحة الفواحة، كان عبق التاريخ وعبق الطبيعة يفوحان ذلك الصباح وكثف من ذلك الاريج مئات زجاجات ماء الورد وماء الزهر التي رشت فوق المحتفلين من الشرفات فكان المنظر حسياً بمجمله: العين التي تبصر بانوراما الالوان والاذن التي تسمع انواع الموسيقى المختلفة والانف الذي يتحسس العبق والاريج والايدي التي تصفق والحناجر التي تصدح والعطاش الذين ارتووا من شرابات اصحاب بسطات عصير الليمون ممن نذروا توزيع الشراب مجاناً ذلك اليوم وهي عادة مألوفة في الموالد والمناسبات والنذورات .

## التهريب وديناميه التحديث الفرنسي

مع فرض الانتداب على لبنان واعلان دولة لبنان الكبير عام ١٩٢٠ فإن مدينة طرابلس اتسمت بالقلق المصيري حيث لم يحسم الانتداب الفرنسي خياراته بهذا الصدد بل ترك هامشاً كبيراً من التردد في هذا الشأن. وفي نفس الوقت فإن ديناميه التحديث الفرنسي عملت على وضع لائحة كبيرة من الممنوعات لتصفية آثار النظام العثماني وخصوصاً في المجال الاقتصادي. ومن الممنوعات على سبيل المثال، السماد الطبيعي والفحم والتبغ والتنباك والملح المستخرج من البحر ومواد البناء التي كانت تستقدم من الموانىء المصرية على المتوسط. وبهذا المعنى، نشأ الاقتصاد الموازي القائم على التهريب او التهرب من دفع الضرائب والرسوم الجمركية .

وشكل تهريب السلاح محوراً هاماً بسبب حملات" التجريدة" التي كانت السلطات الفرنسية تفرضها على المحلات الطرابلسية عقب اي حادث امني، اي أن تقوم كل محلة بتسليم كمية معينة من البنادق والمسدسات. واستلزم هذا الاجراء نمواً زعاماتياً لعائلة المقدم التي كان يتم اللجوء اليها لتوريد السلاح وتأمينه للاهالي .

وتعززت ظاهرة التهريب بسبب ازدواجية النظام الضرائبي الذي عملت دولتا الانتداب والاستقلال على تعزيزه. فبينما كان لبنان القديم (متصرفية جبل لبنان) يشهد تخفيضاً لضرائبه ورسومه الجمركية فإن الملحقات (وفي مقدمها طرابلس (كانت تشهد نظاماً ضرائبياً مرتفعاً، الامر الذي عزز ظاهرة التهريب. وقامت السلطات البريطانية عام ١٩٤٢ بتوقيف النائب راشد المقدم ونجليه نافذ ومايز بذريعة التهريب وهي في جوهرها حجة سياسية لتقليص نفوذ الجناح الوطني الاستقلالي الذي لعب على وتر الخلاف الفرنسي - البريطاني اثناء الحرب العالمية الثانية .

وجرى تخصيص معسكر المية ومية في صور وقلعة راشيا لتوقيف المئات من اصحاب هذا الاتجاه ومنهم الشيخ طه الولي، المواطن الطرابلسي الناشط في هذا التيار. وترجع شهرة قلعة راشيا للاعتقال الثاني الذي قام به الانتداب الفرنسي عام ١٩٤٣ للشخصيات الوطنية التي أعلنت الاستقلال عن فرنسا من طرف واحد (١١ تشرين الثاني ١٩٤٣). وفي واقع الحال فإن قلعة راشيا شكلت معتقلاً جماعياً لأصحاب الاتجاه الاول بعد سقوط حكومة فيشي في حزيران 1941وتجميع قواتها ورحيلها عن لبنان عبر مرفأ طرابلس وحلول قوات فرنسا الحرة محلها )الجنرالان كاترو وديغول) وبداية التناقض ما بين الاستراتيجيتين الفرنسية والبريطانية. وقد دفعت طرابلس اثماناً مضاعفة في لعبة الامم هذه وتعاقب النفوذ الفرنسي (فيشي) ثم الفرنسي الحر (ديغول) ثم البريطاني (المفوض سبيرز) .(في العدد المقبل حلقة ثالثة)

## "يوم القاوقجي": مشهد العنف الاول   لبنان ا  ديث (٣)

طلال منجد

تتابع الحلقة الثالثة من «يوم القاوقجي في طرابلس «رواية الخط المتصاعد الذي ادى الى اول مشهد عنفي في لبنان الحـديث، هذا المشهد الذي يبطن التاريخ الـسياسي للحياة السياسية في مدينة طرابلس منـذ مطلع القرن ودخـول الحلفـاء ومعاهـدة سايكس - بيكو. وبقدر ما تحاول الرواية اكتناه المركب العنفي الذي انفجر، بقدر ما تفسح المجال لروايـة التـاريخ النـاقص والمبتور انطلاقاً من انه آن الاوان فوطن بلا تاريخ يعني في معادلة ثانية شعباً بلا ذاكرة.



القاوقجي في شارع التل امام فندق انتركونتيننتال متجهاً الى الساحة قبل دقائق من وقوع الحادث المروع

وبعيداً عن التعليقات المتسرعة عن «تفتيق الجراح» وما الى هنالك والتي تخفي نزعة مصادرة التاريخ وطمسه، فإن هذه الرواية لا تكتمل حتماً الا بالاضافات، ومع الترحيب مسبقاً بكـل مـا يرد ..

ما من شيء كان يشير ولو بالايماء الى العنف الذي سيتفجر، حتى لعبة السيف والترس كانـت تنبىء بغير ذلك، هذه اللعبة التي تجسد الخصومة وتنتهي الى عكسها اي المصالحة، واللعبـة تتطلب متبارزين يحمل كل منهما سيفاً ليس له نصل وترس نحاسي اشبه بصينية قهوة مقعرة.

وعلى ضربات وقع طبل تبدأ المبارزة - اللعبة بحركات اقدام تشبه الرقص وحركات سيف تشبه التلويح. ويشتد ايقاع الطبل وهنا على المبارز المتمكن ان يهوي بسيفه على ترس مبـارزه او ان يلمسه بالاحرى (ويسمى ذلك بالتعليمة). ولضارب الطبل أهمية قصوى فهو الـذي يحمـي اللعبة ويبردها خلال خمس دقائق وتنتهي المبارزة عادة بحركة تصالحية ويجري تناوب للادوار ما بين المتبارزين. انها لعبة شباب الاحياء التي تحتاج الى مهارة استعراضية اكثر منها مبارزة على طريقة فرسان القرون الوسطى التي تنتهي حتماً بمصرع احد الفارسين .

صدرت اول اشارة غامضة مقلقة يوم عودة القاوقجي عندما اعطي توجيه للجاليـة البريطانيـة الكبيرة والمتنامية باضطراد في مدينة طرابلس والمقدرة لحظتها بحوالي مائة وخمسين عائلـة يعمل رجالها كتقنيين واداريين وعمال في مصفاة نفط طرابلس، أضخم مـصفاة يومهـا علـى شاطىء البحر المتوسط ومن اكبر المصالح البريطانية في هذه المنطقة بعد قناة السويس. وهذا التوجيه الغامض، طلب من البريطانيين عدم التجول في طرابلس هذا النهار والبقاء في «المون ميشال» المجمع السكني الخاص بهم والذي بني على هضبة الهيكلية المطلة على البحـصاص،

محطة وصول القاوقجي. وكانت «المون ميشال» تتصل بمسبح خاص على الشاطئ المواجـه وكان يوجد في طرابلس حينها ٥٠ عنصراً من حرس خاص، من جنـسيات محليـة واجنبيـة، مزودين بالسلاح ويتولون حماية المصفاة والمون ميشال ومسبح الاي.بي.سي بوصفها املاكـاً بريطانية خاصة .

## الرواة: الذكرى والذاكرة

كانوا يناهزون الـ ٢٥ الفاً من مختلف الاعمـار، متفرجـون ومحتفلـون ووجـدوا انفـسهم الكومبارس البشري لذاك المسرح الدموي. واتسمت شهادات الرواة المعمرين بالتمثيـل الحـي المفصل :كيف هربوا او احتموا او تسلقوا السياج او اندفعوا نحـو الـسلم، مقلـدين صـوت الرصاص ومعبرين بأيديهم في لغة تحاكي لغة الحكواتي واشاراته .

والملفت بالنسبة لشهادات القبضايات المتقاعدين، روايتان متناقضتان في بعض التفاصيل التـي تخدم هذا الاتجاه او ذاك، ورغم ان بعضهم تبدلت مواقعه فيما بعد فانه روى شهادته الحية طبقاً للموقع الذي كان فيه حينذاك .

ولان المشهد ينطوي على مستويين، الفرح والفجيعة، فقد تعاملت الصحافة اليومية مع الجـزء الامني فقط من الفجيعة وبشقها السياسي الظاهر كنتيجة، ولقد اهمل كل ما عداه .

من مسرح العيد الى مسرح العنف

تدفقت الحشود في طرابلس كالسيول واتجهت اللجنة المكلفة بالاستقبال الى جسر المدفون، الحد الفاصل بين محافظتي الشمال وجبل لبنان لاستقبال العائد. وعلى جسر المدفون، التقطت الصور التذكارية ومنها صورة ظهر فيها في الصف الامامي من اليمين: نافذ المقدم، فوزي القاوقجي، الدكتور فخر الدين امانة ا من الرعيل الاول، الدكتور عبدا بيسار، مايز المقدم ومحمد حمزة أحد الزعماء الصاعدين والذي سيصبح نائباً فيما بعد وصهراً لآل المقدم .

لدى وصول الموكب الى محلة البحصاص، التقى القاوقجي برفاقه المجاهدين السوريين الـذين اطلقوا اهزوجتهم المميزة :

فوزي بك تتهنا

ورجالك عما تستنى

يا فوزي هات المارتين

حتى نحارب بفلسطين

ونُحرت الخراف واتجه الموكب الطويل نحو محلة الحدادين وكان مؤلفاً من صف طويـل مـن السيارات تحيط به جموع كثيفة .

واقترب الموكب من منزل الشيخ فخر الدين القاوقجي، ابن عم فوزي، والذي تقرر ان يقيم فيه، ويبعد عن ساحة التل حوالي ٢٠٠ متر على خط مستقيم في الشارع المعـروف باسـم شـارع العجم. ولقد وقع الغموض الاول هنا وتعددت الروايات: هل سيتجه القاوقجي الى ساحة التل ام لا؟

في طرابلس، يخضع دائماً اي تجمع احتفالي او تظاهرة حاشدة لخط سير لا شعوري: انه ينطلق عادة من الجامع المنصوري الكبير ويتبع طرقاً عدة وعليه في النهاية ان يمر في ساحة التـل. وتكرس هذا المسار عبر سنين طويلة فلا بد من الساحة ولو طال المسير. امام منـزل الـشيخ القاوقجي، وقع الاشكال الاول بين محمد الحنتور، كبير قبضايات آل المقدم ومظهر العمري الذي تصالح مع كرامي حديثاً .والمواجهة كانت تلاسنية ودارت حول من سيتقدم الموكـب منهمـا، وتدخل المصلحون لكن طقوس الصلحة لم تتكرس ولم تتم. لقد سمع القاوقجي يقول لرفاقه:

«تعبنا يا جماعة بدنا ندخل ونرتاح». لكن الحماس والمصائر والخبايا كانت اكبر مـن رغبتـه فخضع الموكب برمته لخط سير التظاهرات باتجاه ساحة التل من اول المـدخل المـؤدي اليهـا لجهة السراي القديمة .والساحة عبارة عن شارع بطول مائة متر واتساع اقله ١٥ متراً واقصاه ٣٠ متراً ما بين برج الساعة ومبنى السراي. على جانبي الشارع تتجاور أهم المحلات التجارية وتعلوها عادة الفنادق. وفي ثنايا المباني علب ليل ودور سكنية وعيادات اطباء والمبنى يتـألف عادة من ثلاثة طوابق يصعد اليها بدرج حاد، وعلى الجانب الايسر، في منتصف التل، كركـول الدرك (المدرسة الرشدية سابقاً) ويجاوره مبنى سينما «البيروكيـه» (او الببغـاء بالفرنـسية) وفوقه اوتيل الانجا او زهرة الفيحاء. وفي الطابق الاسفل كاراج القطان للسفريات الـى المـدن السورية وبيروت وبجانبه اشهر مقاهي طرابلس، مريات باشا، والاسم مستمد من مدير المتحف المصري، ربما .

ويواجه الجانب الايسر، نفس النمط من التنوع، محلات تجارية ومقهى فهيم واوتيل حكيم، ارقى فنادق طرابلس والمخصص للنزلاء الغربيين وكبار الضباط والعسكريين .

والجانب الايمن للتل يؤدي عبر منافذ ضيقة الى شارع عزالدين الموازي للتل والاقل اتساعاً منه

والمتصل بحيز المدينة الداخلية القديمة .

ان السؤال الذي لم يلق جواباً: وماذا بعد التل، والى أين سيتجه الموكب؟ انه السؤال اللغز الذي لم تجب عنه لا تحقيقات الاربعينات ولا استطلاعات ايامنا هذه. والاحتمال الاصح ان الموكب سيتجه الى منزل آل المقدم في شارع المدارس المجاور وسيعني هذا الامر عملياً تكريس زعامة آل المقدم للمدينة .

مرت طلائع الموكب من طلاب وكشافة وفرق صوفية وعلى الجانبين وعلى الشرفات حشود. اما القاوقجي فكان يستقل سيارة جيب مكشوفة وبدلة داكنة اللون ومنسجمة مع لونه الاصهب المائل الى الاشقرار وبجانبه مرافقه الخاص وسائقه ويحف بسيارته تجمع المجاهدين السوريين الذين اعتلى بعضهم اعمدة متطاولة (كان عددهم خمسة) يرددون الرديات والاهازيج التي انتشرت زمن الثورة، وتلي سيارة القاوقجي، سيارة آل المقدم وقد جلس في مقعدها الخلفي، نافذ ومايز المقدم ومحمد حمزة. ويتقدم موكب السيارات لاعبا ترس وسيف وقارع طبل وجمهرة من الرجال عرفت بحلقة محمد الحنتور الذي كان قد حقق لنفسه شهرة كبيرة في عالم القبضايات .

عند وصول هذه الجمهرة امام مقهى مريات باشا، تشكلت جمهرة من نفس التركيب ولكن بموالاة محلية متناقضة: انها حلقة مظهر العمري الذي توسطها مرتدياً عباءة عربية من الوبر الصافي زادت لونه المائل الى الاحمرار. والعباءة هي لباس الزعماء عادة وكان العمري في طريقه لتحقيق شيء من هذا القبيل لولا انه قرر في اخر ربع ساعة اختيار خصم لا سياسي هو محمد الحنتور الذي كان يعلو حينها على الاكتاف هاتفاً. لقد تكررت الملاسنة الكلامية، ويروى ان الحنتور ركل بقدمه جواباً على شتيمة فاندفع العمري الى سيارته «الشفروليه» واخرج منها «متريوز» غير مألوفة مشاهدته الا في «الافلام السوداء» وله خزان دائري ولقمه واطلق رصاصة على الحنتور الذي - تكمل الرواية - انه وهو يسقط تناول مسدسه واطلق رصاصة على العمري وسقط الاثنان ارضاً وتدافع الناس وهرب قارع الطبل وانفضت الجمهرتان والجمهور كسرب طيور وجل من طلقات الصياد .

وتتابع الرواية هنا ان رصاصاً كثيفاً انطلق فجأة وصم الاذان وكانت ردات الفعل مختلفة:

القاوقجي قفز من سيارته قفزة عسكرية واحتمى بجانبها المحاذي للمحلات التجارية وارتمى فوقه بضعة مرافقين اندفعوا به على شكل مظلة نحو كاراج السيارات المواجه ومددوه تحت سيارة وتمددوا هم، في حين عمد آخرون الى اقفال الباب الخارجي عليهم ثم انسلوا الى سلم

الفندق المحاذي .

في السيارة الخلفية، خرج الثلاثة مندفعين، الشقيقان مقدم ومعهما حمزة، ثم غرقوا فـي سـيل الجموع المتدافعة باتجاه الجانب الايمن من التل، نحو السلالم والمنافذ الصغيرة، وحـاول نافـذ المقدم صعود سلم بناية البابا فتهاوى فحمله سائقه وكان خلفه وصعد به الدرجات الى الطـابق الاول حيث تبين انه اصيب برصاصتين قاتلتين في صدره وخاصرته ومن مسافة قصيرة وباتجاه افقي. اما حمزة ومايز فقد تمكنا من ولوج منفذ يؤدي الى شارع عزالدين فأي مكان آخر هرباً من الجحيم الذي انفلت عقاله .

نصف ساعة من الرصاص الافقي والعامودي والجوي والارضي بالاتجاهات الاربعة المعروفـة، خلت بعدها ساحة التل الا من رجال الدرك، ويقول بشارة الخوري في مذاكراته عن هذا اليـوم «ان قوة من رجال الدرك تدخلت فأطلقت النار تخويفاً في الفضاء ثم اضـطرت لاطلاقـه علـى المتظاهرين لتفريقهم وحجب الدماء" .

بعد نصف ساعة من ظهر ذلك اليوم، انقشع الجو عن منظر خرافي. عشرات الجثـث ممـددة وجرحى ينتفضون وحضرت شاحنات ونقلت الجميع الى ثلاث مستشفيات اشبه بالمـستوصفات. ونقل نافذ المقدم الى مستشفى البيسار القريب وفارق الحياة امام الطبيب عبدا بيـسار الـذي كان معه لساعة خلت على جسر المدفون .

الفاوقجي وقد نجا، صعد مع مرافقيه الى اوتيل زهرة الفيحاء بعد ان هدأت ثـم انتقـل برفقـة مسؤولين اداريين وعسكريين كبار الى منزل قريبه حيث تلقى منتصف الليـل امـراً حكوميـاً بمغادرة طرابلس الى اي مكان في جبل لبنان، فامتثل وفضل بلدة قرنايل فـي المـتن لوجـود اصدقاء موثوقين فيها. لقد انصب الرصاص بصورة خاصة على سيارته وعلى تجمع المجاهدين المحيطين به وعلى سيارة آل المقدم وكان اول من سقط الهتـافون الخمـسة علـى الاعمـدة المتطاولة. اما الناجون فتوزعوا على الاسواق الداخلية ومنها الى باب التبانة حيـث الموقـف الاعتيادي للسيارات والباصات المتجهة الى الحدود .

لم تكن سيارات الاسعاف معروفة بعد ولا الصليب الاحمر ولا جمعيات الاسعاف والدفاع المـدني ولا برادات الجثث ولا حالات الطوارىء الطبية، وشكل كل ذلك خبرة مضافة ونـواقص جـرى التهيؤ لاستكمالها في مناسبات عدة مقبلة .

ومع اول خيوط الفجر الصقيعي، نزل عمال البلدية الى ساحة التل وامامهم مهمات متعددة تبعـاً للمشهد الماثل امام أعينهم المنذهلة: كانت ارض التل مرصوفة بقطع حجارة سوداء على طريقة

رصف شوارع باريس القديمة وبالكاد كان اللون الاسود يرى :الاحمر هو اللون الغالـب فثمـة طرابيش كثيرة وبرك سائلة لزجة وبيارق واعلام وقبعـات و«باسـتونات» وعـصي وطبـول وعقالات ويماثل كل ذلك عدداً بل يفوق بكثير أحذية ومشايات وسكربينات ثـم فـروات رؤوس واطراف واشلاء آدمية متناثرة. ولقد جرى تجميع كل ذلك في كومات مـلأت حمولـة خمـس شاحنات. وانتقل بعدها عمال البلدية الى رش الشوارع وغسل جـدران المبـاني بالميـاه مـن خراطيم اعدت اصلاً لري الحديقة العامة المجاورة واطفاء الحرائق .

لم ينتصف النهار الا وكان المشهد قد زال. وبعيد الظهر دبت الحياة رويداً وتجرأ متطفلون على المرور وسكان المنازل على النزول وتعرف الاهل على ١٤ جثة وبقيت ثلاثون مجهولة في حين لفت كل منها بحرام بني سميك ومعها لوح ثلج معد للجلاب اصلاً اذ لم تكن برادات الموتى قـد عرفت بعد ولا اكياس النايلون .

المدينة المروعة استعادت وعيها سريعاً وشيعت الضحايا في جنازات حزينة وشيع نافذ المقـدم في موكب مهيب بدا انه تظاهرة احتجاج مثلما هو جنازة ملتاعة. والمذهل ان موكب التـشييع ضم فرقاً صوفية وكشفية وطلاب مدارس واكاليل زهر وسلك نفس طريق تظاهرة الاحتفال تلك .

نزل الجيش الى الشوارع واستبدلت الدولة محافظها المير عبدالعزيز شهاب بحجـة انـه كـان يساير آل المقدم واستدعت عسكرياً موضوعاً بتصرف وزارة الدفاع هو الزعيم نورالدين رفاعي وعينته محافظاً على الشمال ففرض اجراءات حالة طوارىء غير معلنة .

بدأت تحقيقات أمنية ركزت على نقطتين: من قتل مظهر العمري ومن اغتال نافذ المقدم، فيمـا اعتبرت بقية الضحايا في حكم الفاعل المجهول. واستدعي معظم القبضايات للتحقيق والترويض فكان واحدهم - مهما كان انتماؤه - يروي روايتين: رواية امام المحقق انه كان في مـؤخرة الموكب وبالتالي لا علاقة له، ورواية ثانية في حلقته وامام زعيمه انه هو الذي اطلق الرصاص ونال من الخصم. ولقد جرى احصاء اكثر من مائة رواية للحادث نفسه. ولم تجر اية محاكمـة وسقط اقتراح في المجلس النيابي قدمه النائب حميد فرنجية لتشكيل لجنة نيابية للتحقيق وتحديد المسؤولية .

الرأي العام في المدينة تحول الى كتلة ضاغطة وبدا ان آل كرامي ومعهم هنري فرعـون هـم المستهدفون، مثلما يروي الشيخ بشارة، وقدم مصطفى كرامي، شفيق عبدالحميد، استقالته من رئاسة البلدية .

ولما كانت الانتخابات النيابية على الابواب وهي تجري على مستوى المحافظة، اجتمع اقطـاب

الشمال (حميد فرنجية ونصوح الفاضل وسليمان العلي) في منزل مايز المقدم في علما وتشكلت قائمة مشتركة فازت لأول مرة في الشمال بشبه تزكية واستنكف عبدالحميد كرامي عن الترشيح وبدا انه ضحية سياسية لكل ما جرى مثلما كان غيره ضحية فعلية. ولقـد تـوفي عبدالحميـد كرامي بعد ذلك بثلاث سنوات اثر مرض عضال .

مايز المقدم الذي انتخب نائباً وهو بالكاد يبلغ السن القانونية للترشيح (٢٤ عاماً) والذي كان قد فقد والده وشقيقه على التوالي، زهد باكراً من السياسة مفضلاً «عشرة الـشجر علـى عـشرة البشر» واصيب بنوبة قلبية مبكرة وتوفي في منتصف العمر .

فوزي القاوقجي الذي اقام في بلدة قرنايل عينته الجامعة العربية بعـد اشـهر قائـداً لجـيش المتطوعين العرب لانقاذ فلسطين وخاض المعارك شبه الوحيدة هناك ثم جرى تسريح الجـيش بعد ذلك بعام ونصف بقرار من الجامعة نفسها بعد «ضياع» فلسطين، فعينـه الـشيخ بـشارة الخوري بصفة خبير فني في الجيش اللبناني وبراتب يوازي حينذاك راتـب مـدرس ابتـدائي. وتوفي القاوقجي مطلع عام ١٩٧٧ .لكن الاجماع الشعبي الاتهامي اتجه نحو الانكليـز رابطـاً الخيوط بعضها بعضاً مع تسلسل الازمنة وصولاً الى الحدث الاعظم: ١٥ ايار وضياع فلسطين .

في مذكراته «حقائق لبنانية» أفرد رئيس الجمهورية الاسبق الراحل بشارة الخوري فصلاً حمل عنوان «حوادث طرابلس الاليمة» روى فيه ما جرى في «يوم القاوقجي» من وجهـة نظـره، علماً انه كان رئيساً للجمهورية عندما وقعت الحادثة، كذلك روى ارتدادات تلك الحادثـة أمنيـاً وسياسياً .

في ما يلي ما كتبه الخوري :

»في اواخر شهر شباط عاد الى بيروت السيد فوزي القاوقجي بعد غياب طال حـوالي خمـس وعشرين سنة، فخف لاستقباله عدد عديد من ابناء بلدته طـرابلس ومـن اصـدقائه القـدماء يتقدمهم عبدالحميد كرامي. وجاء فوزي وعبدالحميد معاً من المطار الـى القـصر الجمهـوري فاستقبلتهما بالترحاب. واذكر تماماً ان عبدالحميد اظهر في هذه المقابلة لطفاً فائق الحد، وممـا قاله لي: كان لك في طرابلس والشمال رجل تعتمد عليه، وها اننا اصبحنا رجلين يمكنك الاعتماد عليهما .فقابلت اللطف بمثله وتمنيت للقادم الجديد التوفيق، واعربت لعبدالحميد عن امتناني من عاطفته .

وبلغني انهما ينويان السفر بعد أيام الى طرابلس وانه سيقام للقاوقجي استقبال حافـل فـسعيت كثيراً، بالاقناع، للحيلولة دون ذلك خشية ان يقع ما لا تحمد عقباه، خـصوصاً وان الانتخابـات

العامة «على لياليها»، والاعصاب متوترة، وكل من الحزبين المتنافسين سيبغي اظهـار قوتـه بهذه المناسبة، ومن هذا يُخشى الاصطدام بينهما .

وباءت محاولتي بالفشل. وذهب فوزي القاوقجي بموكب فخم الى طرابلس، وكانت وفود سورية قد وصلت اليها منذ الصباح وهي تحمل الاسلحة الحربية. وأوعز كل من الحزبين الطرابلـسيين الى رجاله بالنزول الى الساحات بالسلاح الحربي، وراح كل «يغني على ليلاه» ويهتف لزعمائه.

وابتدأ التحدي من الجانبين، وما وصل الموكب الى ساحة المدينة حتى اهمل الفريقـان الرجـل الذي اجتمعا لتكريمه وتشابكا يتبادلان العيارات النارية القاتلة، فسقط عدد مـن المتظـاهرين، ومنهم نافذ المقدم عميد عائلته واخو النائب مايز المقدم، وسقط ايضاً مظهر العمري وآخـرون من أنصاره. واختلط الحابل بالنابل، واضطر المحتفى به وهو جندي قديم لان يلجأ الـى مكـان يحميه خشية ان يصاب في مقتل خطأ .

وتدخلت قوة الدرك فأطلقت النار تخويفاً في الفضاء، ثم اضطرت لاطلاقـه علـى المتظـاهرين لتفريقهم وحجب الدماء. وصدرت الاوامر بان ينزل الجيش الى المدينة فنزل وعاد السكون بعد جهد جهيد. وعلى الاثر اتصلت وزارة الداخلية بفوزي القاوقجي وطلبت منه ان يغادر طرابلس برضاه تفادياً لما هو اعظم، فاقتنع الرجل وامتثل، كما يفعل كل عاقل محنّك محب لوطنه، وسافر حالاً الى قرنايل بعيداً عن الجو المضطرب الذي ما كان مخاص ليريده .

ذيول الحادث

وجرت تلك الحادثة المفجعة ذيولاً محلية وادارية وفي مجلس النواب، ذلـك ان الـرأي العـام الطرابلسي عد ان الاستفزاز الذي اشعل النار يوم الاستقبال سببه مظهـر العمـري، ومظهـر ينتسب الى هنري فرعون وعبدالحميد كرامي، فاستغل الحزب المعاكس نقمة النـاس عليهمـا وبالاخص على اولهما لكونه غريباً عن المدينة. وبلغ الحكومـة ان خـصوم هنـري فرعـون يهددون ويتوعدون على الرغم من كونه وزيراً، فاحتاطت للامر احتياطات جمة وأرفقته برجـال الامن، واثار هو الوضع في مجلس الوزراء ملحاً بنقل المحافظ عبدالعزيز شهاب ناسـباً اليـه التحيز الى حزب آل المقدم .

وكان اخذ ورد، وقر الرأي ان يستقيل رئيس البلدية مصطفى كرامي (اخو عبدالحميد) وان ينقل المحافظ الى مركز آخر. وعُين الزعيم نور الدين الرفاعي الذي كان تحت تصرف وزارة الدفاع، محافظاً على طرابلس. وكنا نرجو ان مثل هذا التدبير يحفظ التوازن بين المتخاصـمين ويـوفّر على الحكومة هزة في مجلس النواب. ولكن خاب املنا وقاد الحملة على رئيس الحكومة حميـد

فرنجية وهو صديق نور الدين الرفاعي، فقد ساءه ان يفرض الرجل فرضاً في هـذه الظـروف الدقيقة، وانضم الى حميد اكثر نواب الشمال وانعقدت الجلسة في 21 من آذار والقى فيها حميد فرنجية خطاباً عنيفاً وهاجم رئيس الوزارة بصورة غير منتظرة، ومما قاله :

..."اني أعلن انهم لم يختاروه (المحافظ) للادارة بل فرض عليهم فرضاً.. نحن استكبرنا عليك (موجهاً الكلام لرئيس الوزارة) بالامس ان تكون قبلت بائتلاف فرض عليك فرضاً، لانك كبير في أعيننا وفي أعين الامة، اما ان ينقلب هذا القبول بالائتلاف استسلاماً فهذا ما لا نرضاه. انـا لا استجوب الحكومة، واني افضل لك يا صديقي ان لا تكون في هذا الكرسي حين يقـضي عليـك الائتلاف بالاستسلام على هذا الشكل.. واني اعاهدكم ان شمالي لبنان لن نقتطعـه لأحـد ولـن يستثمر لاحد .«

وملك رياض الصلح اعصابه واجاب صديقه بكل هدوء، فدافع دفاعاً اضـعف مـن الهجـوم، واشترك في المناقشة عدد من النواب وصبري حمادة وزير الداخلية وسامي الصلح الذي طلب سحب المحافظ حالاً «لاعادة الهيبة الى الحكم والاطمئنان الى الناس !«

وعلى الرغم من عنف الجدل فقد امنت الحكومة لنفسها الكثرية ردت اقتراحاً من حميد فرنجيـة يقضي بتأليف لجنة برلمانية للتحقيق في حوادث الشمال وما تبعها .«

## »طرابلس في ظل الطغيان «

يعتبر كتيب «طرابلس في ظل الطغيان» الذي صدر عقب الحادثة رواية اولى وسريعة لاحـداث ذلك اليوم واهميته انه يربطها واقعياً بالمرحلة السياسية التي سبقته وبالانقلاب السياسي الـذي شهدته المدينة عام ١٩٤٣. واغلب الظن ان واضعه هو الصحافي الراحل احمد زكي افيوني.

ورغم انه شهد انتشاراً وتوزيعاً واسعين في حينه فقد اختفى تدريجياً من التداول لـولا نـسخ نادرة هنا وهناك .

ومما جاء في استهلالية الكتيب المؤلف من ١٦ صفحة :

الى الرأي العام العربي في كل الاقطار العربية .

الى الضمير العربي المتيقظ .

الى المجاهدين العرب الذين وقفوا حياتهم على خدمة العرب .

الى الشعب اللبناني والسوري وابناء الفيحاء نوجه نداءنا هذا ونتلو عليهم كلمتنا هذه :

لعل حاجتنا الى صيانة الحرية في عهد الاستقلال هي اكثر من حاجتنا الى كل سعي فـي سـبيل الحرية قبل الاستقلال .

لقد كنا في وجه المستعمرين صفاً واحداً ندافع عن حقنا في الحرية والسعادة، وكنا نعرف عدونا في وجهه الحقيقي ووجهه الزور، وكنا نعرف هدفنا والغاية التي نسعى اليها وما كان في وسع لاحد ان يموه علينا ذلك الوجه البغيض باصباغ التزييف ولا ان يردنا عن هدفنا بانواع التضليل .

## 31عاماً في ساحات الوغى

يعتبر فوزي القاوقجي من العسكريين القلائل الذين امضوا نحو ٣١ عامـاً (١٩١٨ - ١٩٤٩) في ساحات الحروب والوغى يتنقلون من جبهة الى اخرى ويـصارعون جيـشاً إثـر جـيش، بالاضافة الى ميزة ثانية انه لم يسع ولم يتسلم طيلة حياته اي منصب سياسي او اداري .

■ولد فوزي القاوقجي في مدينة طرابلس عام ١٩٨٠ من عائلة تولت مناصب دينية. وبدلاً من متابعة طريق آبائه واجداده، التحق بالكلية الحربية في اسطنبول وتخرج ضابطاً فـي سـلاح الفرسان الخيالة وأُلحق بجنوبي ولاية البصرة التابعة للسلطنة العثمانية .

■شارك مع الجيش التركي في التصدي للقوات البريطانية - الهندية التي غزت العـراق مـن جنوبه في البصرة عام ١٩١٨. واثر هزيمة الاتراك، التحق بمسقط رأسه مدينة طرابلس .

■عام1920 ، زار الامير فيصل الذي أُعلن ملكاً على سوريا مدينة طرابلس في طريقـه الـى بيروت ورفض القاوقجي مقابلته في البداية، انطلاقاً من ولائه للسلطنة العثمانية، الا انـه عـاد والتحق بالجيش السوري في دمشق وتسلم منصب مدير المخابرات في مدينة حمـاة. ويقـول القاوقجي في مذكراته التي حققتها الباحثة خيرية قاسمية انه عمل على تأسيس خلايا سرية بين الاهالي والعشائر تحت تسمية «حزب ا » للعمل على الاستقلال عن الفرنسيين .

■عام ١٩٢٥، وبعد اندلاع ثورة جبل الدروز، اشعل فوزي القاوقجي نار الثـورة فـي حمـاة والتي امتدت الى المناطق المجاورة. وجرت حرب عصابات وصلت الى جرود الضنية وعكار الا ان المركز كانت تدمر وعشائرها التي نصبت القاوقجي زعيمـاً لهـا. وفـي النهايـة، حـسم الفرنسيون الامر بعد حشد عسكري كثيف وقصف مدفعي طال الاماكن المدنية .

■انسحب القاوقجي ورجاله الى غوطة دمشق وانضم الى القيادة الموحدة وتسلم الدفاع عـن

احد محاور العاصمة السورية. وخصص الفرنسيون ٥ فرق نجحت في ارغام الثوار على القـاء السلاح في نهاية ١٩٢٦. وصدر بحق القاوقجي حكم بالاعدام وطارده الفرنسيون مـن مكـان لآخر طيلة سنوات .

■التجأ القاوقجي الى المملكة العربية السعودية الناشئة وتولى تدريب جيـشها الا ان الخـوف منه دفع السلطات الى اعتقاله لفترة .

■انتقل القاوقجي مطلع الثلاثينات الى العراق الذي كان يسمى حينها «بروسيا العرب» وتولى التدريس في كليتها العسكرية وكان ناشطاً في نادي القوميين العرب في بغداد .

■قاد حملة من المتطوعين العرب ودخل فلسطين عام ١٩٣٦ لمحاربة الوجـود البريطـاني والمستوطنين. وبعد اعلان وقف اطلاق النار، عاد الى العراق .

■تشكلت في العراق حكومة وطنية برئاسة رشيد عالي الكيلاني التي كان همها اقصاء الوجود البريطاني بعد عقد معاهدة ١٩٣٦ واعلنت الحرب على البريطانيين وتسلم القاوقجي قيادة جبهة الرطبة قرب الحدود السورية واصيب بجراح نقل بعدها الى العاصمة الالمانية برلين للعلاج.

وهذه هي المرة الثانية التي يصاب بها وكانت المرة الاولى عام ١٩١٨ اثناء القتال مع القوات البريطانية ايضاً على جبهة البصرة .

■بعد سقوط برلين بيد الحلفاء والاتحاد السوفياتي وتقسيمها الى مناطق احتلال، اقام القاوقجي في القطاع الروسي فوضع في الاقامة الجبرية واجبر على الاشغال الشاقة وكان نـصيبه نقـل جثث ضحايا الحرب ودفنها في المقابر .

■جرت اتصالات عربية مع السوفيات للسماح للقاوقجي بالعودة الى العالم العربي الذي كـان يغلي بسبب القضية الفلسطينية. واتجهت نية الانظمة العربية الى تشكيل جيش من المتطـوعين العرب تحت قيادة القاوقجي. واعلن قرار تقسيم فلسطين من قبل مجلس الامن الدولي فـي ٢٩ شباط ١٩٤٧. وكان القاوقجي قد غادر برلين الى القاهرة عن طريق باريس في ٢٢ شباط من ذلك الشهر. وفي القاهرة قرر القاوقجي ان يزور مسقط رأسه مدينة طرابلس بعـد غيـاب ٢٧ عاماً عنها. واحدثت عودته دوياً هائلاً في لبنان والمدن السورية التي زحف اهاليها وعشائرها لاستقباله في طرابلس بعدما تحدد يوم ٤ اذار ١٩٤٧ لعودته اليها، علماً ان الانظمـة العربيـة كانت تنتظر موعد ١٥ ايار1948 ، موعد الانسحاب البريطاني نهائياً من فلسطين لتقرر علـى ضوء ذلك خطوتها التالية .

■تولى فوزي القاوقجي قيادة جيش الانقاذ الفلسطيني طيلة عامي ١٩٤٨ و١٩٤٩ وابلى في البداية ودخلت الجيوش العربية فلسطين في ١٥ ايار ١٩٤٨. وتلقى القاوقجي قرار حل الجيش بعد الهدنة الثانية اثناء لقائه المسؤولين في الجامعة العربية في القاهرة. وانتهى بذلك عمله العسكري بعد ٣١ عاماً على خوضه معارك متعددة على جبهات عدة وبمواجهة اعتى جيوش الغرب: فرنسا وبريطانيا وعصابات الجيش الاسرائيلي .

■توفي القاوقجي مطلع العام ١٩٧٧ .

## عندما مالت البنادق

في مذكراته كتب القاوقجي: «(...) ووقعت الواقعة التي لن انسى في حياتي كلها، وقعها الهائل المؤلم في نفسي، مالت افواه البنادق والرشاشات من الاتجاه العمودي الى اتجاه افقي منخفض، واخذت الجثث تتساقط والدماء تسيل في الساحة وفي المقاهي، فخُيل الي كأنما نحن في معركة كبيرة، وبقدر ما اذكر انني كنت احتفظ برباطة جأشي في اية معركة من المعارك التي قدر لي ان اخوضها. شعرت بانقباض شديد جارح في اعماق نفسي. وكان عجزي عن عمل اي شيء مجد، يزيد في وقع الموقف المحزن في نفسي. وتدخلت قوى الدرك والشرطة بالسلاح، فتفرقت الجماهير، ولكن عدد القتلى والجرحى زاد كثيراً، وبعد ساعة من الزمن دخلت المنزل وانا اكاد لا اعي من شدة ما نزل بي من عذاب نفساني، يندر ان اكون شعرت بمثله في حياتي .«

## بلاغ الحكومة

اصدر قلم المطبوعات البلاغ التالي :

»بمناسبة عودة فوزي القاوقجي الى الوطن، اقامت له مدينة طرابلس استقبالاً شعبياً اشتركت فيه جماهير عديدة من المناطق اللبنانية المجاورة ومن المناطق السورية، ورغبت الحكومة ان تفسح للمستقبلين المجال مراعاة لشعورهم وعواطفهم بقدوم مواطنهم .

ولدى وصول الموكب الى محلة البحصاص اطلق بعض المستقبلين العيارات النارية ابتهاجاً .

ثم استؤنف اطلاق النار في شارع التل حيث كان ازدحام المستقبلين شديداً، وفي اثناء ذلك اصيب محمد حنتور بطلق ناري فبدأ تبادل اطلاق الرصاص بين الجماهير، وتدخلت قوات الامن فوراً بشجاعة فائقة، ثم حضرت قوة من الجيش واشتركت مع الدرك بقمع الحادث الذي اسفر عن ثلاثة عشر قتيلاً من الاهالي وقتيل من مأموري الامن، وعن اربعة واربعين جريحاً من

الاهالي وحالة اكثرهم سليمة، واصيب اربعة من رجال الدرك بجراح ليست بذات بال، وقد توجه معالي وزير الداخلية الى طرابلس للاشراف على الحالة .»

## كيف اغتيل نافذ المقدم؟

تعددت الروايات حول كيفية اغتيال نافذ المقدم، فالنائب الراحل محمد حمزة) مقابلـة شخـصية عام ١٩٩٠) ذكر انه كان بجانب زميله في الجبهة السياسية عندما انهمـر الرصـاص علـى المحتشدين فهرعا معاً نحو الرصيف الايمن وفيما سلك حمزة الممر المؤدي الـى شـارع عـز الدين فإن نافذ صعد درج بناية البابا ولم يره بعد ذلك الا في مستشفى البيسار بعد شـيوع نبـأ اغتياله .

اما النائب الراحل سالم كبارة فيقول ان «نافذ المقدم صعد وهو جريح الى اوتيل حكـيم (فـوق مقهى فهيم) ونقل بعدها الى مستشفى البيسار حيث توفي .»

وتسنى لي رؤية صورة شخصية لنافذ المقدم مسجى على سرير في مستشفى البيـسار وهـو مصاب بطلق ناري في خاصرته من المؤكد انها رصاصة مسدس وقد اطلقت عليه من مـسافة قريبة. والصورة موجودة في ارشيف جريدة «الانشاء» وقد اطلعني عليها الصديق الزميل مايز الادهمي. ويذكر ان «الانشاء» صدرت بعد مرور شهرين على الحادثة اي في ايار ١٩٤٧ .

اما لماذا لم تُنشر صور الضحايا في الصحف وخاصة البيروتية منها فثمة روايتان :

-ان قائد الدرك نور الدين الرفاعي قد استدعى ليلاً جميع المصورين الفوتـوغرافيين وصـادر جميع افلامهم وصورهم الفوتوغرافية عن الحادثة لضرورات التحقيق .

-ان رؤساء تحرير الصحف الطرابلسية والبيروتية اتفقوا فيما بينهم على عدم نـشر الـصور، احتراماً منهم للمشاعر الانسانية ولأهالي الضحايا وهو الامر الذي يعتبر مـن أسـس وقواعـد مهنة الصحافة، ادبياً واخلاقياً .

## القتلى والجرحى

استناداً الى كتاب «طرابلس في التاريخ» للكاتب محمد كامل بابا، الشاهد العيان على الحادث فإن الضحايا هم: نافذ المقدم، مظهر العمري، محمد حنتور، محمد محبوب (من رجال التحري) هشام عدرة، عبدالقادر مرحبا، طعمة نقولا مشتاح، فايز نور الدين اليافي، محمـود عمـر علـوش، مصطفى توفيق محمد، محرم احمد خليل، سليم صافي، خديجة عبد عمر. ومن حمـاة: الحـاج

مصطفى زعرور. ومن حمص: عبدالهادي الشمشري واثنان مجهولان .ومن برقايـل: الـشيخ احمد الرفاعي، وبلغ عدد الجرحى ٥٧ جريحاً وظل خارج المستشفيات عدد كبير .

ويذكر الطبيب الراحل طارق المنلا (مقابلة شخصية عام ١٩٩٥) انه «قد عالج جرحى الحادثـة وكانت اصاباتهم بالغة وغصت بهم المستشفيات وبعضهم ظل من دون عـلاج. وبـسبب هـذه الحادثة المروعة فقد قام بانشاء المستشفى في طريق الميناء .«

وقدرت الاوساط اللبنانية عدد الضحايا من اللبنانيين بـ ٢٢ قتيلاً اما الضحايا السوريون فقـد قدر عددهم الفعلي بنحو اربعين ضحية تولت شاحنات عسكرية نقلهم الى الحـدود اللبنانيـة - السورية حيث برزت مشكلة لم تكن بالحسبان، اذ طالبت السلطات الـسورية بتـسليم اسـلحة المتظاهرين الذين قدموا من سوريا وعددهم بالآلاف وهو الامر الذي نفته الحكومة اللبنانية التي قدرت عددهم بنحو الف شخص من دون تحديد عدد الذين قدموا بأسلحتهم.